العدد 21A 2 تموز 2026
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
NO.21A2 Jul.2026 Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

غرض الرثاء في شعر ابو البقاء الرندي

م.م مهند صالح مهدي

المقدمة:

الحمدُ لله برحمته اهتدى المهتدون، وبعدله وحكمته ضلَّ الضالون، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون، وأشهدُ أن محمداً عبد الله ورسوله، تركنا على محجةٍ بيضاء لا يزيغ عنها إلا أهل الأهواء والظنون، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

أما بعد، فإن الأدب العربي زاخر بأعلام الشعراء الذين تركوا بصمات خالدة في تاريخ الشعر، وكان لهم دور بارز في التعبير عن مشاعر أمتهم وآمالها وآلامها. ومن بين هؤلاء الشعراء أبو البقاء الرندي، الذي اشتهر بشعره الرثائي المؤثر، خصوصاً في رثاء الأندلس بعد سقوط مدنها في أيدي النصارى.

ينقسم هذا البحث إلى مبحثين رئيسيين: يتناول المبحث الأول حياة الشاعر أبي البقاء الرندي، فنشأته ونسبه، وأبرز محطات حياته الأدبية، مع التركيز على شعره ومكانته في عصره. أما المبحث الثاني فيتناول غرض الرثاء في شعره، حيث يعد من أبرز من جسد هذا الفن الشعري، لا سيما في قصيدته الشهيرة التي رثى فيها الأندلس، مع تحليل أسلوبه وتأثير هذا الغرض في شعره.

نسأل الله التوفيق في هذا البحث، وأن يكون إضافة مفيدة لكل مهتم بالأدب العربي وبشعر الرثاء.

المبحث الأول:

نبذة عن حياة أبو البقاء الرندي

•**اسمه وكنيته:** هو صالح بن أبي الحسن بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف النفزي من أهل رندة، ويكنى أبا الطيب .وأبو البقاء وهو مشهور في الشرق وخصوصاً في هذا العصر بأبي البقاء وهو أديب وشاعر وناقد قضى معظم أيامه في مدينة رندة، وقد اختلفت المصادر في كنيته فهو تارة (أبو الطيب) وأخرى (أبو محمد) وكناه المغربي بأبي البقاء، ((وإن شيوع كنية أبي البقاء في الشرق والغرب جاءت بعد المقري الذي ذكر تلك الكنية مرة واحدة في كتابه ويرجح أن أبا الطيب كان الأشهر في زمانه)).

•**نسبه:** ينتسب الرندي إلى قبيلة نفزة، وهي من قبائل البربر وينتمي إلى مدينة رندة وأشار الحميري في كتابه المعطار إلى أنها ((من مدن ذاكرنا وهي مدينة قديمة بها آثار كثيرة وهي على نهر ينسب إليها))

وكذلك نقل ابن سعيد في (المغرب) متحدثاً عن رندة أنها أحد معاقل الأندلس المنيعة، وقاعدها المرتفعة، وقد كانت أيام الدولة المروانية في منطقة ثورة عمر بن حفصون، وبقيت رندة في جملة دولة غرناطة الإسلامية الباقية إلى أواخر أيامها وجاء أنها معقل حصين وبها زرع واسع وضرب سايغ وأنها حصن بين إشبيلية ومالقة.

•**مولده ووفاته:** ولد في محرم سنة إحدى وست مئة وتوفي عام أربعة وثمانين وست مئة في مدينة رندة بجنوب الأندلس سنة 601 هـ والمتوفى سنة 684 هـ ويبدو أن شاعرنا قد عاش في القرن السابع الهجري وقد تعددت المخطوطة التونسية بذكر تاريخ ولادته ووفاته حيث جاء أنه ولد في محرم سنة إحدى وستمائة وسنة أربع وثمانين وستمائة وفاة له سنة (601-684 هـ، 1204-1285 م) هو من أهل رندة الواقعة في الجزيرة الخضراء بين مالقة وشريش وتردد على قرطبة عدة مرات وأقام لفترة من الزمن في مالقة وتوفي سنة (684 هـ - 1285 م).

•**أسرته:** لا نجد في كتب التراجم حديثاً عن أسرته وأولاده ولانعرف من اشتهر من أهله بعده غير أننا نعرف له ابناً يدعى أبا بكر قد توفي صغيراً (ابن 8 سنوات) وقد رثاه بأكثر من قصيدة في كتابه الوافي، وقال الرندي في مقدمة قصيدة أنشدها في الغرب (بر العدوة) إنه يتشوق إلى الأهل والوطن لكنه لم يفصل ذكر أهله وله قصيدة في رثاء زوجته في الوافي. ويبدو أن الرندي أكثر من أخ فقد ذكر لنا لسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ) عند ترجمته للشاعر أخاً اسمه (خالد).

•**مشيخته:** قال ابن عبد الملك (روى عن أبا الحسن بن أبا الدباج الفار الريشي وأبي الحسين بن قطرال، وأبي القاسم بن الجد التونسي) وكان صاحب الذيل والتكملة (ابن عبد الملك) ومعاصراً للرندي فاستجازه فقال (كتب إلي بإجازة ما رواه وألفه وأنشأ نظماً ونثراً .(أما شيوخ الرندي فهم من أعلام العصر في فنون مختلفة، فأبو الحسن الدباج كان من أهل الفضل والصلاح مقرئاً ومحدثاً متقدماً في العربية والآداب ويقرض الشعر بجيد فيها وهو توفي سنة 646 هـ، وابن الفخار الشريشي كان عارفاً بالحديث حافظاً للغة والآداب وهو استقضى برندة والجزيرة الخضراء وتوفي سنة 642 هـ، وبقية شيوخه ممن تحدثت كتب التراجم عنهم بالعلم والفضل والتقدم ويبدو أن الرندي تلقى علومه واستكمل ثقافته في مدينة رندة حتى عرفه معاصروه بفضله ومكانته.

•**مؤلفاته:** بقيت لنا إلى يومنا هذه مجموعة من آثار الرندي بينما نقف على أسماء مؤلفات وآثار أخرى لاندرى أفي الضياع هي مما لا رجعة له، أم أنها في بطون الخزائن. ومن كتبه التي نعرفها أو نعرف لها أسماً هي:

1. الوافي في نظم القوافي.وهو كتاب نقدي جامع منه نسخ في القاهرة والرباط وغيرها (يصدر في سلسلة دراسات أندلسية).
2. روضة الأنس ونزهة النفس .وهو كتاب ثقافة جامع شبيه بكتب المعارف العامة كعيون الأخبار والعقد وأشباهها ومنه نسخة ناقصة في مكتبة خاصة بالمغرب.
3. ديوان شعر.وهو مفقود منه نقول مبثوثة في كتبه وفي كتب التراجم وتاريخ الأدب الأندلسي وأشار ابن الزبير أن كلامه نثراً ونظماً مدون.
4. وله (مقالات) نعرف اسمها فقط وهي من المفقود.
5. كتاب الفرائض :وقد شرحه الشيخ أبو الحسن علي بن محمد القرشي البسطي الشهير بالقلصادي.
6. جزء على حديث جبريل.
7. تأليف في العروض.
8. وله قصائد زهدية وتصانيف أدبية.

وقد ألف في الفرائض (تقسيم الإرث) نظماً ونثراً وله أيضاً مقامات بديعة. ومن كتبه أيضاً روضة الأنس ونزهة النفس مقتصر في الفرائض، والوافي في نظم القوافي (في البلاغة والنقد) وطبقات الشعراء وعمل الشعر وفي فنون الشعر وخصائصها المستحبة .ولكن يبدو أن الكتاب قليل الابتكار وأن غاية الرندي فيه كانت جمع الخصائص المشهورة من كتب النقد المختلفة.

• **رحلاته وتغربه عن رندة:** كانت للرندي رحلات وأسفار إلى أنحاء الأندلس الباقية في عصره، وأكثر رحلاته وأسفار كان إلى الحاضرة (غرناطة). فقد نقل لسان الدين أنه (كان كثير الوفادة على غرناطة والتردد إليها يسترفد ملوكها، وينشد أمراءها).

والقصيدة التي أولها:

" أواصلتي يوماً وهاجرتي ألفاً "

أخبرني شيخنا أبو عبدالله اللوشي الكاتب أنه نظمها باقتراح السلطان، وقد أوعز إليه ألا يخرج عن بعض بساتين السلطان حتى يكملها، في معارضة (محمد بن هانئ الألبيري).

وكانت له رحلة أو أكثر إلى المغرب، لا ندري متى على التحديد، لا ندري متى كانت على التحديد، غير أننا نجد جملة قصائده المبثوثة في كتابه (الوافي في نظم القوافي) قصيدة يحن فيها إلى الأندلس. قال (ومما يتعلق بذلك يعني باب الوصف قولي وأنا بمراكش:

[من البحر الكامل]:

بحياة ما ضمت عرى الأزرار ... بذمام ما في الحب من أسرار

بالحجر بالحجر المكرم بالصفا ... بالبيت بالأركان بالأستار

بالله إلا ما قضيت لبانة ... تقضي بها وطراً من الأوطار

ويكف من أشجان صب يشتكي ... جور الزمان وقلة الأنصار

بلغ لأندلس السلام وصف لها ... ما في من شوق وبعد مزار

وإذا مررت برندة ذات المنى ... والتاج والديموس واللوزار

سلم على تلك الديار وأهلها ... فالقوم قومي والديار ديار

وذكر الشاعر لنفسه قصيدة في كتابه روضة الأنس ونزهة النفس قالها بالعدوة متشوقاً إلى الأندلس والأهل والوطن، يقول فيها:

يا نسيماً هب من أندلس ... فتلقّت طيبه ريحُ النعامى

ما امترى ناشقه لما سرى ... أنه فض عن المسك الختاما

آه من شوقي لقوم ماجرى ... ذكرهم إلا جرى دمعي سجاما

وذكر الرندي خبر اجتماعه بالشيخ الفقيه أبي علي القصري بمدينة سبتة ومذكراته إياه في ضروب الآداب.

• **شخصية الرندي:** يتبين للدارس من خلال ما جمعه من أخبار عن الرندي، وما توفر له من مصادر، صورة واضحة إلى حد كبير عن أخلاقه وتدينه، ومكانته الاجتماعية والفكرية في عصره، بالإضافة إلى طبيعة علاقاته بمعاصريه واتجاهاته الأدبية والعلمية. فقد وصفه عدد من المؤرخين والأدباء، مثل ابن الزبير وابن عبد الملك المراكشي وابن الخطيب، بأوصاف تكفي لرسم صورة متكاملة له كأديب فقيه وشاعر ذي مكانة مرموقة في زمانه.

فقد ذكر ابن الزبير في ترجمته للرندي أنه كان يُعد من أهل الخير والفضل والدين، مما يعكس الجانب الأخلاقي والديني في شخصيته. أما ابن عبد الملك المراكشي، فقد أشار إلى أن الرندي كان "خاتمة الأدباء في الأندلس"، مبرزاً تميزه في الشعر والنثر، فضلاً عن كونه فقيهاً حافظاً للعلم، ومتخصصاً في الفرائض، ومتبحراً في معارف متنوعة. كما وصفه بأنه كان "نبيل المنازع، متواضعاً، مقتصداً في أحواله"، مما يكشف عن تواضعه واعتداله في حياته الشخصية والاجتماعية.

كما كان الرندي يتمتع بقدرة فائقة على إقامة علاقات طيبة مع أهل الفكر والأدب، وكذلك مع أصحاب النفوذ من الأمراء والوزراء، مما يدل على مهارته في التعامل مع مختلف شرائح المجتمع، وقدرته على التكيف مع الأوضاع السياسية والاجتماعية في عصره. هذه الصفات مجتمعة جعلت منه شخصية بارزة في تاريخ الأندلس الثقافي والسياسي، وأسهمت في ترسيخ مكانته كأحد أعلام الأدب والفقه في زمانه.

وقد كان الرندي ممن يستطيع أن يُحسن الصلة بينه وبين أهل الفكر، وأصحاب الدولة من الأمراء الحكام والوزراء المتنفذين، ومن كان في ساحتهم وساعده علمه وشاعريته على تقريبهم له واستنشادهم من شعره.

وهو جمع إلى هذه الصفات الخلقية الطيبة ورعاً وتديناً ومراقبة تشهد بها تراجمه وقطع باقية من أشعاره. فمن شعره في غرض التوحيد قوله:

ما بالنا نَغْتَرُّ بالأذهان ... ونغرها بمطالب البرهان

ونقيس كي نَدْرِيَ الكل علة ... ونروم شيئاً ليس في الإمكان

ونروم معرفة الإله وإنما ... نبغي الكمال بغاية النقصان!

ونريدُ نفهمُ سِرَّهُ في عالم ... لو شاء كان على نظام ثانِ

ومن المحال تصور الإنسان ما ... مُنِعَتْهُ قُوَّةُ عالم الإنسان

ما في الوجود إذا أردت حقيقة ... إلا الإلهُ وكُلُّ شيءٍ فانِ

وله من قطعة أخرى: أشار إليك جَميعُ الوجودِ بانك أوجَدتَّهُ من عدم

وقام بأمرك من غير شيءٍ ولولاك ياسيدي لم يقم

المبحث الثاني

غرض الرثاء عند أبو البقاء الرندي

•**فن الرثاء: التعريف اللغوي :**جاء في لسان العرب لابن منظور تعريف الرثاء كالآتي: «ورثى فلان فلاناً يرثيه رثياً ومرثية إذا بكاه بعد موته. قال فإذا مدحه بعد موته قيل رثاه يرثيه ترثية. ورثيت الميت رثياً ورثاءً ومرثاةً ومرثيةً: ورثيته مدحته بعد الموت وبكيته، ورثوت الميت أيضاً إذا بكيته وعددت محاسنه، وكذلك إذا نظمت فيه شعراً... وامرأة رثاءة ورثاية: كثيرة الرثاء لبعلها أو لغيره ممن يكرم عندها، تنوح نياحة، ورثيت له رحمته ورثى له أي رق له.»

الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتابه العين لم يذهب بعيداً في مفهومه للرثاء عن مفهوم ابن منظور فتكلم عن المترثي؛ كونه محور الرثاء فهو الذي يتوجع ويفجع فقال: {ولا يرثي فلان الفلان، أي لا يتوجع إذا وقع في مكروه... والمترثي المتوجع المفجوع}

التعريف الاصطلاحي :الرثاء من الفنون الشعرية التي لها وزن وقيمة في الشعر العربي، وهذا بما يحمل من صدق وعاطفة، وعمق إحساس بالآخر، الذي رحل عن الدنيا وابتعد. فالرثاء هو تصور حقيقي يربط بين ثنائية الموت والحياة، والانتقال من عمق الفاجعة والأسى إلى الصبر ومواصلة الحياةولعل كل شاعر فقد عزيزاً على قلبه,رثاه باحدى قصائده يقول الجاحظ في هذا الصدد:ان الرثاء يدل على وفاء الشاعر لمن رحل عن الدنيا, فهو بهذا يعلم مكارم الاخلاق,الى ما يذكر من محاسن الراحل , وبهذا يكون ابعد اثر بسبب صدق العاطفة.

ولقد ارتبط الرثاء-كما جاء في التعريف اللغوي – بالبكاء والندب,والنواح, وصفات عدة, كما نلمس في صاحبه رقة عاطفة ورهف احساس , وهذه الملامح نجدها بكثرة عند المرأة اكثر من الرجل , لانه يمتاز بالصبر والجلد

•الرثاء في عصر دولة بني الأحمر:

ويقال له التأبين أيضاً، وإذا كان المدح هو الثناء على الشخص في حياته، فإن الرثاء أو التأبين هو الثناء على الشخص بعد موته، وتعداد مآثره، والتعبير عن الفجيعة، وشعر الرثاء إنما يقال وفاءً، والشاعر يقضي حقوقاً سلفت، ويبدي من التفجع والحسرة والألم والاستعظام ما يدل على حجم المأساة التي حلت عليه، فيذكر صفات المرثي مبللة بالدموع.

وإذا ما نظرنا إلى هذا الموضوع، باعتبار أن المرثي هو الأساس فيه، فإننا نجد نوعاً جديداً من الرثاء قد ظهر في العصر الأندلسي، وازدهر في عصر بني الأحمر، وهو رثاء المدن؛ فالحبيب الذي فُقد هنا هو الوطن، وهذا جاء بسبب تفرق المسلمين وضياع كلمتهم، وتراجع بداياته منذ سقوط مدينة طليطلة، وهي أول مدينة يستعيدها النصارى سنة 478 هجري.

والرثاء في ذاته لم يكن جديداً على الشعر العربي، وهو نوع من الألم لحبيب ارتحل، أما البكاء على الطلل والدموع على غير الصديق، أو أهل أو قريب أمر يلفت النظر، ويثير العجب، ويدعو إلى الغرابة، وقد كان لذلك السلطان الذي كان للمسلمين في تلك البلاد ولتلك الدولة التي قامت هناك قداسة واحترام، وغبطة وابتهاج، ولأنه كان مجداً للعروبة وحصناً للإسلام وقوة للدفاع عن الدين إذا دهمه العدو، ولذا، فقد أرغمهم خصوم دينهم أن يتراجعوا عن ذلك المجد، ويرفعوا أيديهم عن تلك البقعة من الأرض، وكان لهذا الهدف في نفوسهم وقع الصواعق، وفعل السلاح، فلم تسعفهم إلا تلك الدموع الحارة يذرفونها، وتلك الصيحات الحزينة يرسلونها، وتلك القصائد الطنانة يقولونها، لعلها تخفف من آلامهم.

والأندلسيون لا يختلفون في مراثيهم عن المشارقة في رثاء الميت والتفجع عليه، بيد أنهم تفوقوا في رثاء الممالك البائدة، لما في نفوسهم من محبة صادقة لهذا الوطن، فكان يشجيهم أن يروا بلادهم تسقط بلداً إثر بلد في أيدي الغرباء، ويعتبر رثاء المدن من المراثي السياسية، ولهذا اللون الشعري اتجاهان؛ اتجاه يقف وسطاً بين البكاء والاستنجاد، فهو سلبي ذو نفس انهزامي وهؤلاء صوروا شعور مواطنيهم وعبروا عنه بالدمع أحياناً، وبالدمع والاستنجاد أحياناً أخرى، إلا أن معظمهم مالوا إلى البكاء وذرف الدموع على الأطلال.

وهناك اتجاه وقف موقفاً إيجابياً تمثل ببحث الشعب الأندلسي على مقاومة العدوان والاستبسال بالذود عن الوطن، لأنهم رأوا في المأساة قضاءً على الكثير منهم، من خلال المذابح والمجازر التي حلت بهم، ومساً لأرضهم التي أحبوها.

وجاءت ثورة هذا الشعر يوم سقوط إشبيلية بيد الإسبان في العام 646هـ، حيث ثبت موجة من الغضب في صدور معظم الشعراء، ورافقهم في هذا شعورهم بفقدان الأمل بقدرة الحكام على الصمود واسترجاع المدن الضائعة، وبدا هذا واضحاً عند أبي البقاء الرندي.

فهو يصف ما حل بديار الإسلام، فقد تبدل الكفر بالإيمان، وحلت الكنائس مكان المساجد، حيث يقول: {بحر البسيط}

تَبكي الحَنيفِيَّةُ البَيضاءُ مِن أَسَفٍ ... كَما بَكى لِفِراقِ الإلفِ هَيمانُ

عَلى دِيارٍ مِنَ الإسلامِ خالِيَةٍ ... قَد أَقفَرَت وَلَها بِالكُفرِ عُمرانُ

حَيثُ المَساجِدُ قَد صارَت كَنائِسُ ما ... فيهِنَّ إِلّا نَواقيسٌ وَصُلبانُ

أفرد الرندي في كتاب "الوافي" باباً خاصاً لغرض الرثاء؛ واستغله - كعادته في الأغراض الأخرى - في إيراد نماذج من شعره في الرثاء تعد أبرز ما بين أيدينا منه. ونجد شعره هذا في قسمين، القسم الأول منه خاص أسري، رثى فيه من اتصل به من المتوفين من الأقارب، والقسم الثاني يتعلق برثاء بعض من اتصل بهم بسبب.

وفي الأول رثاؤه في ابن له اسمه محمد وكنيته أبو بكر، وفي والده، وفي زوجته وفي الثاني رثاؤه في الأمير النصري محمد (الأول) وفي من دعاه أبا بكر، ولعله الوزير أبو بكر بن يحيى الذي كان من ممدوحيه.

وتتخذ قصيدة الرثاء عنده منهجاً متقارباً، فهو يضمنها في العادة أموراً أربعة: أحدها معانٍ حكمية عامة في الدنيا، والحياة والموت والفناء والخلود وأن كل شيء هالك إلا الله سبحانه وتعالى. والثاني: ذكر مآثر المتوفي وصور من حياته. والثالث التفجع والتوجع وأثر المصاب في نفس الشاعر. والرابع: التصبر والتعزي وما يلحق بذلك.

وتختلف المواقف النفسية بحسب اختلاف المرثي، فتجد في رثاء الأقارب حرارة اللوعة وذوب النفس، وتنضح العبارة عن مكنونات الشاعر ومشاعره وتحس في رثائه للأمير محمد بارتفاع صوت الباكي دون أن تحس بانسكاب الدمعة. وينتقل الشاعر في القصيدة الرثائية من حاضره إلى ماضٍ سابق كانت فيه للمرثي مآثر ومفاخر وهو يطيل الوقوف عند الماضي مستنجداً به لإثراء الحديث عن الحاضر. فمن شعره الرثائي قوله من قصيدة يرثي بها زوجته:

يَا بُرْهَةً كَانَ فِيهَا لِلْمُنَى أَمَلٌ ... وَنُزْهَةً لِلْهَوَى وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ

مَضَتْ مُضِيَّ الصِّبَا عَنِّي وَلَا عِوَضٌ ... وَمَنْ يَقُومُ مَقَامَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ

عَهْدِي بِالْفَتَا وَالْأُنْسُ يَنْظِمُنَا ... بِطَيِّبَةِ الْعَيْشِ نَظْمَ السِّلْكِ لِلدُّرَرِ

رُوحَيْنِ فِي جَسَدٍ، سِرَّيْنِ فِي خَلَدٍ ... كَمَا تَقَابَلَ أَهْلُ الْخُلْدِ فِي السُّرُرِ

حَتَّى رَمَى الْبَيْنُ شَخْصَيْنَا فَفَرَّقَنَا ... كَمَا تَفَرَّقَ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالنَّظَرِ

يَا لَيْتَنِي عِنْدَمَا حُمَّ الْحِمَامُ، كَمَا ... قَاسَمْتُهَا كَبِدِي، قَاسَمْتُهَا عُمُرِي

فَإِنْ تَكُنْ زَهْرَةً مِنْ رَوْضِهَا قُطِفَتْ ... فَقَلَّمَا تُمْتَعُ الْأَيَّامُ بِالزَّهَرِ

وَإِنْ تَكُنْ دُرَّةً مِنْ سِلْكِهَا خُطِفَتْ ... فَالدَّهْرُ أَدْرَى بِمَا يَسْبِي مِنَ الدُّرَرِ

يَا قَلْبُ صَبْراً عَلَى مَا قَدْ فُجِعْتَ بِهِ ... فَلَسْتَ فِي دَفْعِ مَقْدُورٍ بِمُقْتَدِرِ

لَا تَبْكِ فَقْدَ حَبِيبٍ أَنْتَ تَابِعُهُ ... إِذَا مَضَى الْبَعْضُ فَالْبَاقِي عَلَى الْأَثَرِ!

في هذه الأبيات، نجد أن الشاعر يستهل حديثه بأسى عميق على زمن مضى، زمن كان فيه الأمل مشرقاً والحياة مليئة بالأنس والمتعة. كانت أياماً أشبه بنزهة للروح والهوى، حيث اجتمع فيها الحب والصفاء، لكنها رحلت كما يرحل الشباب، بلا عودة ولا تعويض، فمن ذا الذي يستطيع أن يحل محل الشمس والقمر في هذا الكون؟

ثم يأخذنا الشاعر إلى عمق العلاقة التي جمعته بمن فقد، فيصور الألفة التي كانت بينهما بصورة بديعة، كحبات الدر المنتظمة في عقد جميل، جمعهما العيش الهنيء، كأنهما روحان في جسد واحد، أو سران التقيا في عالم الخلود، لا يفصل بينهما شيء، تماماً كما يجتمع أهل النعيم على الأسرة في الجنة. ولكن، ويا له من قدر قاسٍ، أتى البين ليفرّق بينهما، فكان الافتراق أشبه بانتزاع العين من النظر، وكأن الموت لم يكتفِ بأخذ الجسد، بل فصل بين الروح والروح، بين القلب ونصفه الآخر.

ويمتد الحزن إلى تمني المستحيل، فقد كان الشاعر يتمنى لو أن المصير جمعهما معاً، كما قاسم الفقيد ألمه وحزنه، كان يتمنى أن يقاسمه عمره أيضاً، فلا يبقى خلفه يعاني هذا الفقد. لكنه يستدرك، فيتأمل في طبيعة الدنيا، حيث لا يدوم فيها جمال، فالزهور التي تبهر العين سريعاً ما تذبل، واللآلئ التي تزين العقود قد تختطفها يد القدر دون إنذار. وهكذا، لا يبقى للإنسان إلا الرضى بما تسلبه الأيام، فالدنيا لا تبقي كنزاً ولا تحافظ على درة في عقدها طويلاً.

ثم يوجه حديثه إلى قلبه، طالباً منه الصبر، فما جدوى الحزن على ما لا يُرد؟ فالموت قدر لا يقاوم، ولا يملك الإنسان أن يدفعه، ولو بكى الدهر كله، فلن يغير شيئاً. وأخيراً، يختتم حديثه بحقيقة الحياة والموت، فما دام البعض قد مضى، فالبقية على الأثر لا محالة، وكأن الحياة رحلة لا تتوقف، والموت نهاية حتمية يسير إليها الجميع، واحداً بعد الآخر.

فهذه القصيدة كتبها لزوجته - كما ترى - وتذكر أيامها الخوالي يوم أن كان الدهر مساعداً، حتى جاء الفراق الأخير الذي لا لقاء بعده، وتفجع وتوجع وفدى، وذكر بعض مآثرها، ثم خلص إلى العزاء والصبر في كلام مشبوب بالحكمة وللشاعر قصيدة أخرى في رثاء زوجته.

وفي رثاء ابنه أبي بكر تحس بحرارة اللوعة منذ البيت الأول، ويتكرر اسم ابنه (محمد) وكنيته (أبو بكر) مما يزيد في أثر القصيدة، ويعمقه، كقوله:

بنيَّ أبا بكر، بنيَّ أبا بكر ... وماذا عسى يغني التعلل بالذكر

ذهبت ذهاب الصبر عني مُكرهاً ... فوا أسفي ألا لقاء إلى الحشر

فإن كنت نجماً راغ منه أفوله ... فمالك لا تبدو مع الأنجم الزهر؟

وإن كنت زهراً جف إذ أخلف الحيا ... فمالك لا تحيى ودمعي كالقطر؟

ينطلق الشاعر في هذه الأبيات بنداء حزين يفيض بالشوق واللوعة، حيث يخاطب الفقيد بلهجة مليئة بالحب والحنين، كأنما لا يزال قريباً منه رغم الفراق. لكنه سرعان ما يدرك أن التذكر لا يغني عن الفقد شيئاً، فما جدوى اجترار الذكريات إذا كان الغائب لن يعود؟ كأنما يحاور نفسه قبل أن يحاور الراحل، في محاولة عبثية لإيجاد عزاء لا يتحقق.

يمضي في وصف وقع الفقد عليه، فيقول إنه ذهب عنه كما يذهب الصبر عن الإنسان المكره على تحمل المصائب، في إشارة إلى أن صبره لم يكن اختياراً بل إجباراً فرضته قسوة الحياة. ثم يطلق زفرة الأسى حين يدرك أن اللقاء بات مستحيلاً إلا يوم الحشر، حيث لم يعد هناك أمل في الوصال إلا في عالم الآخرة، وهي فكرة تحمل في طياتها مزيجاً من التسليم بالقدر والأمل في لقاء أبدي بعيد.

ثم يأخذ في تساؤلات تحمل في طياتها العتاب والدهشة، إذ يتساءل إن كان الفقيد نجماً أفل فلماذا لا يظهر مع بقية النجوم المضيئة؟ وإن كان زهرة جفت بعد أن خانها المطر، فلماذا لا تعود إلى الحياة، ودموعه التي تنهمر بغزارة تشبه قطرات المطر؟ هنا، يتحول الحزن إلى استغراب، وكأن الشاعر يرفض أن يسلم بحقيقة الموت، ويبحث عن أي تفسير يقنع قلبه الكسير، لكنه في النهاية لا يجد إلا الحيرة والأسى يملآن صدره.

ويخرج الشاعر بعد أبيات أخرى في وصف أثر فقده في نفسه، وشجاه من مصابه إلى التغني باسمه مرة أخرى، في تكرار مؤثر:

محمدُ ما أشجى فراقك لوعةً ... محمدُ ما أدهى مصابك من أمرِ

محمدُ في قلبي، محمدُ في فمي ... لئن غاب عن عيني فما غاب عن فكري

تتجلى في هذه الأبيات أعمق معاني الحزن والأسى، حيث ينادي الشاعر فقيده بحرقة، مكرراً اسمه كأنما يحاول استدعاءه من الغياب، وكأن النطق باسمه يخفف من وطأة الفراق. يبدأ الشاعر بوصف الفقد بأنه أشد ما يكون إيلاماً ولوعة، فهو لا يترك في النفس إلا حرقة لا تهدأ، ولا في القلب إلا جرحاً لا يندمل، ثم يتساءل في حسرة عن هول هذا المصاب، الذي يبدو فوق طاقة البشر، وكأن الدنيا بأسرها لم تشهد كارثة أشد وقعاً من رحيله.

ثم ينتقل إلى تأكيد حضوره الدائم رغم الغياب، فهو وإن رحل عن الأنظار، لا يزال حياً في القلب، حاضراً في اللسان، مخلداً في الفكر. فالغائب ليس من اختفى عن العيون، بل من انمحت ذكراه، ومحمد - الذي يرثيه الشاعر - لم يغب لحظة عن خاطره، ولم يفارقه طيفه، فهو يعيش في وجدانه كما لو كان لم يرحل أبداً.

تعكس الأبيات حالة الفقد العميق، حيث لا يجد الشاعر عزاءً إلا في استمرار الذكرى، وكأنها الجسر الوحيد الذي يبقي الراحل قريباً منه، رغم المسافات التي لا تُقطع، ورغم الزمن الذي لا يعود.

وعنصر التسليم بقضاء الله والإذعان لمشيئته بارز دائماً في قصائده الرثائية. وهذا وإن كان من الأحكام الإسلامية العامة، فإنه مرتبط بشخصية الشاعر ذات الجوانب الفقهية الدينية الواضحة.

وفي رثاء الأمير النصري محمد - التي بعث بها إلى الأمير الجديد من بلده رندة - جمع الشاعر إلى رثائه المديح، فهي قصيدة محبوكة الطرفين: العزاء بالمتوفى والاستقبال للحاكم الجديد. أما معاني الرثاء فيه فتدور حول شخصيته وخصاله وما قد سبق منه من أفعال عظام، وحول ما كان لوفاته عند الناس من أثر، فمن هذه القصيدة:

يا حسرة الدين والدنيا على ملك ... قد كان حسبهما لو مُدّ في الأجلِ

أصابه من وراء الحجب صائبة ... إن المنون لأرمى من بني ثعلِ

وزوال الملك دهراً ثم فارقه ... وزال عنه وذاك الفخر لم يزلِ

ومنها:

أصبحت فينا على حكم الردى خبراً ... فكنت كالطيف أو كالطيف والمثلِ

كأن وجهك لم يُشرق لناظره ... كالبدر في السعد أو كالشمس في الحملِ

كأن كفّك لم تُبسط لآملها ... يوماً ولا عرضت للجود والقبلِ

تصور هذه الأبيات رثاءً مفعماً بالأسى على ملك عظيم، كان للدين والدنيا معاً سنداً وذخراً، وكأن فقده خسارة لا تعوض في كلا الجانبين، إذ لم يكن ملكاً فحسب، بل كان رمزاً للعدل والخير، حتى أن الشاعر يرى أن استمرار حياته كان سيكفي لحفظ التوازن والرخاء.

لكن يد الموت لم تبقِ له فرصة، فقد أصابه سهم الفناء من حيث لا يُرى، والموت هنا يوصف بأنه أرمى من بني ثعل، في إشارة إلى أن قبضته لا تخطئ، وسهامه لا ترد، مما يعكس حتمية القدر الذي لا يستثني أحداً، حتى أعظم الملوك. وعلى الرغم من أن زوال الملك أمر مألوف عبر الدهور، إلا أن هذا الملك لم ينتزع مجده، ولم يزل فخره حتى بعد رحيله، فكأن عظمته باقية رغم فناء الجسد.

ثم يتحول الشاعر إلى تصوير حال الفقيد بعد موته، فيرى أنه صار مجرد خبر يتداول، بعد أن كان ملء السمع والبصر، وكأن وجوده لم يكن إلا كضيف عابر أو طيف سريع الزوال، في صورة تجسد كيف ينقلب حال الإنسان في لحظة واحدة من قوة وسلطة إلى مجرد ذكرى.

ويتابع متحسراً، متسائلاً كيف لوجهه الذي كان يضيء كالبدر في أزمنة السعد، أو كالشمس في برج الحمل، أن يغيب فجأة؟ وكيف ليده التي كانت تُبسط للناس بالعطاء، وتُرفع للقبلات احتراماً وتقديراً، أن تُطوى فلا تُرى بعدها؟ هذه الأبيات الأخيرة تعكس الحيرة أمام حتمية الفقد، وكأن الشاعر لا يزال يرفض تصديق رحيل هذا الملك العظيم، ويتأمل في مفارقة أن من كان بالأمس رمزاً للجود والنور، أصبح اليوم غائباً لا يُرى.

وعلى الرغم من وجود معانٍ مشتركة في قصائد الرثاء، ومنهج عام ينتظمها لديه عادة فإن لكل قصيدة عنده جواً خاصاً بها، ومعاني فرعية تنت مع المناسبة، لتناسب الظرف.

أما رثاء المدن الزائلة فقد خلق شاعرنا الرندي نونية فاقت في الشهرة قفا نبك، ولم يعهد الناس مرثية بلغت ما بلغته من إثارة الحفاظ وإرهاق العواطف، فضلاً عن إبداع النظم وإحسان السبك، حتى أنها فاقت مرثية للأديب أبي جعفر بن خاتمة أثناء سقوط غرناطة وكانت رندة قد سقطت، إذ قال فيها:

أحقاً خبا من جو رندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها

وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت ... منازلها ذات العلا وقصورها

وكم طفلة حسناء فيها مصونة ... إذا أسفرت يسبي العقول سفورها

يبدأ الشاعر بالتساؤل في حيرة وأسى عما إذا كان نور "رندة" قد خبا حقاً، مستنكراً أن تنطفئ أنوار هذه المدينة العظيمة التي طالما أشرقت، وكأن فقدانها أمر لا يصدق. ثم يتابع بوصف التحول الكبير الذي طرأ عليها، فقد انطفأت شموسها بدورها بعد أن سبقتها إلى الأفول، في صورة توحي بأن الخراب لم يأتِ دفعة واحدة، بل كان انهياراً تدريجياً، بدأ بزوال الرموز الصغيرة حتى بلغ شموس العظمة نفسها.

ويعمق الشاعر الإحساس بالفاجعة حين يصور رندة وقد أظلمت أرجاؤها بعد أن كانت منارة للضياء، وزلزلت قصورها ومنازلها العظيمة، مما يدل على التحول العنيف الذي طرأ عليها، وكأن الأرض نفسها اضطربت من هول ما أصابها، فصارت خراباً بعد أن كانت قمة في العزة والمجد.

ثم ينتقل إلى مشهد آخر، حيث يرسم صورة حزينة لفتيات المدينة، اللواتي كن في الماضي رمزاً للجمال المصون، فإذا أسفرن كشفن عن فتنة تسبي العقول، لكن هذا الجمال أصبح الآن بلا حماية، وكأن الشاعر يلمح إلى المصير المأساوي الذي لحق بأهل المدينة بعد سقوطها، حيث لم يعد هناك مكان للأمن والعفاف وسط الخراب والضياع.

في هذه الأبيات، يظهر الشاعر متألماً لفقدان مدينة عظيمة كانت يوماً مصدراً للفخر والنور، لكنه لا يعبر عن ذلك بشكل مباشر، بل يجسد المشهد من خلال صور متتابعة تعكس الانهيار التدريجي، من انطفاء الأضواء، إلى اضطراب الأرض، إلى فقدان الأمان والجمال، في رثاء يفيض بالحزن على مجد ضائع ومدينة سقطت بعد أن كانت شامخة.

وحين أسس بنو الأحمر دولتهم في غرناطة أسرعت معظم الأسر الأندلسية إليها، وفي ظل بني الأحمر استقرت الحياة الفكرية من جديد فأخرج الشعراء والأدباء ما تخزن بها قريحتهم، وأبدوا تعلقهم الشديد بهذه المدن ورثوها وبكوها بكاء الثكلى حين انطفأت شمس الأندلس وانطفأت الحياة الأدبية والفكرية فيها وانتهى كل شيء.

وفي رثاء الأندلس يقول شاعرنا قصيدة يستنصر أهل العدوة الأفريقية من بني مرين لما جعل ابن الأحمر (محمد الغالب بن يوسف) أول سلاطين غرناطة يتنازل للإسبان عن عدد من المدن استرضاءً لهم وأملاً في أن يبقي له على حكمه المقلل على غرناطة:

لِكُلِّ شَيءٍ إِذا ما تَمَّ نُقصانُ ... فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إِنسانُ

هِيَ الأُمورُ كَما شاهَدتَها دُوَلٌ ... مَن سَرَّهُ زَمَنٌ ساءَتهُ أَزمانُ

وَهَذِهِ الدارُ لا تُبقي عَلى أَحَدٍ ... وَلا يَدومُ عَلى حالٍ لَها شانُ

تجسد هذه الأبيات حكمة خالدة حول تقلبات الدنيا وعدم ثبات أحوالها، حيث يبدأ الشاعر بحقيقة حتمية مفادها أن كل شيء يبلغ كماله مصيره إلى النقصان، فيحذر الإنسان من الاغترار بلحظات السعادة والرخاء، إذ لا شيء يدوم في هذه الحياة.

ثم يوضح أن الدنيا بطبيعتها دول تتبدل، فلا يستمر فيها نعيم ولا يدوم فيها بؤس، بل هي كالموج المتحرك، ترفع البعض في لحظة وتخفضهم في أخرى، فمن سُرّ بزمن معين، فلابد أن يمر عليه زمان يصيبه بالهم والأسى، وكأن السعادة نفسها تحمل في طياتها نقيضها، مما يجعل الاستقرار في الدنيا ضرباً من الوهم.

ويختتم الشاعر بحقيقة لا تقبل الجدل، وهي أن هذه الدنيا لا تُبقي أحداً، فكما أفنت ملوكاً وأهل مجد، ستفني من يليهم، فلا شيء في الوجود يبقى على حاله، ولا شأن يستمر ثابتاً، فالدوام لله وحده.

في هذه الأبيات، نلمس فلسفة عميقة تدعو الإنسان إلى عدم الاغترار بزينة الدنيا أو الجزع عند تقلباتها، فهي بطبيعتها أن تتغير، ولا أحد يملك فيها شيئاً أبدياً.

وأنت ترى براعة الاستهلال وجودة السبك لدى الشاعر، الذي أتى بكل ما ازدحمت به نفسه من تقلبات الزمن وفناء الأمم السابقة، ليوظف ذلك كله من أجل رثاء الأندلس وطنه العزيز، الذي وجده يتقلب في النعيم يوماً، ثم وجده يهوي في مهب الريح أياماً أخرى، بعد أن عصفت به الفتن وأكلت أخضره ويابسه، وقد قرر بعض الدارسين أن إيراد شعراء لمثل هذه الأحداث في قصائدهم إنما هو من أهل التخفيف من وقع المصيبة، والتعزي بموت السابقين وفنائهم.

المصادر والمراجع:

- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني.
- قراءات في الأدب الأندلسي، د. صلاح جرار.
- التجديد في الشعر الأندلسي، د. باقر سماكة.
- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، الأمير شكيب أرسلان.
- أبو البقاء الرندي، محمد رضوان الداية.
- الأدب العربي في الأندلس، عبدالعزيز عتيق.
- لسان الدين ابن الخطيب، حياته، عصره، بيئته، أحمد بسبح.
- تاريخ الأدب العربي في الأندلس، إبراهيم أبو الخشب.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين المصري.
- معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي.
- نظرية أبي عثمان بن بحر الجاحظ في النقد الأدبي، عيسى إبراهيم السعدي.
- الوافي في نظم القوافي (النسخة التيمورية)
- روضة الأنس ونزهة النفس.
- موسوعة شعراء الأندلس، محمد العريس.
- شعراء العرب المغرب والأندلس، يوسف عطا الطريفي.
- الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب.